الأساس الديني والتكوين المذهبي ودوره في الصراع العثماني الفارسي

أ/حمزة عيجولي /قسم التاريخ جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر02 –

الايميل:hamzaidjouli@yahoo.fr

الملخص:

بعد سقوط دولة الموحدين سنة 1269 ظهرت عدة دول في المجال الجغرافي للعالم الإسلامي مشرقا ومغربا تسعى لاكتساب الشرعية الدينية التي تضمن لها الهيبة والقبول، وتعد الدولتان العثمانية والصفوية مثالا بارزا في ذلك، فالدولة العثمانية (1923/1299) التي بدأت كإمارة بدوية في الأناضول وسرعانما توسعت وتطورت حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف كانت تعتبر نفسها حاملة لراية الخلافة الإسلامية، ومع بروز الدولة الصفوية (1736/1501) التي بدأت كأسرة دينية صغيرة في الهضبة الإيرانية وتوسعت خارجها باعتماد الأساس الديني بتبنيها مذهبا مخالفا لجارتها وغريمتها الدولة العثمانية، دخلت القوتان في صراع سياسي وعسكري مرير طبع أساسا بطابع الصراع المذهبي الذي صار متغيرا رئيسيا في الخلاف العثماني الفارسي لعدة قرون.

Abstract:

After the collapse of the Almohads's state in 1269, many states appeared in the geographical scope of the Islamic World, east and west, seeking to obtain religious legality that would guarantee respect and acceptance, to which the Ottoman and the Safavid states are considered perfect examples. The Ottoman

state that started as a bedouin principality in Anatolia rapidly gained momentum and developed into a vast empire, considered itself as the vanguard of the Islamic Caliphate. With the advent of the Safavid state that had started as a religious little family on an Iranian hill and expanded outside Iran relying on religious grounds, adopting the Shi'ite doctrine to differentiate itself from its neighbor and rival, the Ottoman empire, the two states engaged in a bitter political and military conflict; a factional conflict that became an essential variable in the Ottoman-Persian dispute for centuries.

الكلمات المفتاحية:

الدولة العثمانية – الخلافة العثمانية – الصراع العثماني الفارسي – الأناضول – الدعاية الصفوية

المقال:

تُعَدُّ الفكرة الدينية محرِّكًا أساسيًّا للأحداث التاريخية، كما أن الدين مقوِّم رئيسي في بناء الحضارات ونقصد بالدين هنا مختلف المعتقدات التي تتبناها الشعوب سواء كانت سماوية مثل الإسلام والمسيحية واليهودية أم وضعية كالزرادشتية والبوذية والمجوسية والسيخية والمناوية...إلخ[1].

وقد تبنَّى هذا الرأيَ عدةُ مدارس تاريخية وفلاسفة ومفكرين كابن خلدون ومالك بن نبي وأرنولد توينبي[2] وغيرهم، خلافا لمن يقدِّم مقومات أخرى للحركة التاريخية مثل العوامل المادية والاقتصادية والتحولات الاجتماعية[3].

لقد كان ظهور الدولة العثمانية سنة 1299 في الأناضول وقيام الدولة الصفوية سنة 1501 في الهضبة الإيرانية على أساس ديني وهو الإسلام، فانتساب العثمانيين إلى عثمان الأول[4] كزعيم قبلي يدين بالإسلام ويسعى لتوسيع رقعة إماراته خدمةً له في مواجهة البيزنطيين المسيحيين، كما أن انتساب الصفويين إلى شيخ الطريقة صفي الدين إسحاق الأردبيلي[5] كزعيم روحي وشيخ مُرَبٍّ سني قبل أن يتحول أحفاده إلى التشيع الذي بنى على أساسه الشاه إسماعيل الصفوي دولته وتوسعاته، فالأساس الديني والذي هو الإسلام يجمع بين القوتين العثمانية والصفوية غير أن التكوين المذهبي يُفرِّق بينهما (التسنن والتشيع).

يكاد يجمع المؤرخون من مؤيدي الدولة العثمانية وحتى من أعدائها على الروح الإسلامية والشحنة الإيمانية التي رافقت مراحل تأسيسها وتوسعاتها ونورد هنا مثلا قول المستشرق الإنجليزي برنارد لويس[6]: "كان من المألوف بين مسيحي أوروبا في زمنٍ ما أن يستعملوا كلمة (تركي) كمرادف لكلمة (مسلم) ويقولون عن أي شخص اهتدى إلى الإسلام بأنه أصبح تركيًّا، ولم يكن هذا التعبير بعيدا عن المنطق لأن الإمبراطورية العثمانية من مبدإ نشوئها إلى نهاية أمرها كانت دولة إسلامية نذرت نفسها أولا لحمل راية الإسلام إلى أقطار جديدة ثم الدفاع عنه ضد الكفار... وكان حاكمها الأعلى حاكمًا

للإسلام الأعلى حسب تعبير كُتَّابها ورجالها الرسميين، وجيوشها جيوش الإسلام وقوانينها قوانين الإسلام"[7].

فالإسلام كدينٍ كان المحرك للفتوحات العثمانية والإسلام كنظام حكم وتعاليم سياسية واجتماعية هو الصبغة التي طُبِعت بها الدولة العثمانية في تأسيس قواعدها، فقد تحددت العقيدة الإسلامية كدين رسمي للأتراك العثمانيين منذ عهد الأمير عثمان الأول[8]، حيث يذكر بعض المؤرخين أن عقيدتهم قبل عثمان لم تكن واضحة تماما[9].

غير أن الثابت هو تشبُّع العثمانيين منذ نشأة دولتهم بالشعور الديني وروح العقيدة الإسلامية التي ألهبت العاطفة الوجدانية لديهم، وهو ما يفسر الاندفاع الكبير في الفتوحات العسكرية المبكرة خاصة في بلاد المسيحيين باسم الجهاد المقدَّس.

ورغم هذا لم تكن الخلافة العثمانية بتلك الدولة التي تسير بانضباط على المنهج الإسلامي حيث شابتْها العديد من النقائص والتناقضات ولكن يُحسب لها على الأقل:

- ❖ توسعة الرقعة الإسلامية وحفظ وحدة العالم الإسلامي ومقدَّساته لأكثر من أربعة قرون.
- ❖ مواجهة الضغوطات والحملات الصليبية شرقا وغربا[10].

حتى أن مصطلح "المسألة الشرقية" المتداول كثيرا في الكتابات التاريخية عن الدولة العثمانية يعبر في حقيقته عن الصراع الذي كان قائما بين الشرق الإسلامي الممثل في الدولة العثمانية (1299- 1923) والغرب المسيحي الممثل في الدول والإمارات والممالك المسيحية الأوروبية[11] وهي تمثل -أي المسألة الشرقية بمفهومها الحديث- مرحلة

من مراحل الصراع القديم بين النصرانية والإسلام[12]، ويذهبُ أحدُ الكُتَّاب بعيدا إلى حد التأكيد على أن سبب سقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة بها يعود أساسا إلى عقيدتها الدينية وروحها الإسلامية التي جلبت المؤامرات والمكائد لها[13].

فالأساس الديني الذي قامت عليه الدولة العثمانية هو الإسلام السني الذي تبنَّتْهُ الدولة رسميًّا من خلال المذهب الحنفي مع النزعة الصوفية التي كانت بارزة في الدولة، حيث كان معظم علماء ورجال الفقه والقضاء وشيوخ الإسلام من الأحناف المتصوفين، حتى أن بعض السلاطين كانوا من النُّسَّاك والزَّهَّاد فيما تنقله لنا بعض المصادر التاريخية.

كما أن الدولة الصفوية قد قامت على أساس الدين الإسلامي إلا أنها تختلف اختلافا جذريا مع العثمانيين حيث جعلت التشيع هو المذهب الرسمي للدولة فكانت العصبية المذهبية الشيعية قاعدة رئيسية في التكوين السياسي الديني للدولة[14].

وقد وحَّد التشيُّعُ قبائل الهضبة الإيرانية تحت راية الشاه إسماعيل الصفوي (1524/1501)، فكان العامل المذهبي بمثابة الرابط المعزز للعامل القبلي الرابط بين المجموعات البشرية الإيرانية[15].

لقد استطاعت الدعاية المذهبية الشيعية أن تحقق انتشارا واسعا داخل الهضبة الإيرانية وشرقي الأناضول والتخوم الشمالية للعراق وبلاد الشام، فالعامل المذهبي هو المفسر الوحيد للامتداد السريع الذي شهدِتْه الدولة الصفوية في عهد الشاه إسماعيل (1501-1524).

فإذًا الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية، والدولة الصفوية دولة إسلامية شيعية، وهنا يظهر المتغير المذهبي في تحديد طبيعة العلاقات بين القوتين .

رغم أن الدين الواحد من حيث المبدأ يعتبر عامل وحدة بين الشعوب والقوميات المختلفة غير أن انقسام الدين الواحد إلى مجموعة من المذاهب والطوائف يعد عاملا للتفرقة والفتنة بين أبناء الشريعة الواحدة، فيصبح بذلك الولاء للمذهب والطائفة مقدَّما على الولاء للدين[16].

فيما نجد أن بعض الشعوب المتحضرة استطاعت تجاوز هذه العقد الدينية المذهبية إلى الرقي في علاقاتها البينية وفق الاحترام المشترك للمعتقدات الفردية والجماعية مع احترام حقوق الأقليات[17].

لقد كان تأسيس الدولتين العثمانية والصفوية على أساس ديني ممثلا في القوة الروحية للإسلام مع اختلاف التكوين المذهبي (سنة وشيعة)، فالدولة العثمانية تنسب نفسها إلى الإسلام وتراث المسلمين وحضارتهم حيث تعتبر نفسها وريثة لنظام الخلافة الإسلامية السنية التي انتقلت عبر مراحل تاريخية من المدينة المنورة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة وصولا إلى إسطنبول[18]، وكانت ترى كل مخالف لهذا المبدإ عدوا لها سواء كان من الصليبيين أو من المسلمين المخالفين لفكرتها ومذهبها وعلى رأسهم الدولة الصفوية[19].

هذه الأخيرة هي الأخرى قامت على أساس مذهبي صريح منذ بدايتها حيث أصرَّ الشاه إسماعيل على التسمك بالمذهب الشيعي وأعلنه كمذهب رسمي ووحيد للدولة به يُحدَّد الولاء السياسي لها بين مؤيديها ومعارضيها، والأخطر من هذا وهو ما يدخل في

صلب هذا العامل هو اعتبار المذهب الشيعي الأساس الذي يوجه سياسات الدولة داخليا ويحدد طبيعة علاقاتها واستراتيجياتها الإقليمية والدولية خارجيا[20].

وبالفعل كان المحدد المذهبي هو المتحكم في العداء الذي ظهر بين العثمانيين والصفويين حيث إن كلا الفريقين اعتبر مواجهة الآخر حربا دينية وواجبا مقدسا، حيث رأى العثمانيون أن الدعاية الصفوية التي تنشر التشيع في الأناضول والعراق تشكل خطرا على مصالح الدولة وعلى وجودها من أساسه[21]، لأن ظهور الدولة العثمانية كقوة فاعلة إقليميا ودوليا قد كان معتمدا في أساسه على البعد الديني والأيديولوجي[22] خاصة بعد حصول العثمانيين على لقب الخلافة الإسلامية في عهد السلطان سليم الأول 1520/1512 عند دخوله إلى القاهرة بعد هزيمة المماليك[23].

وبالتالي لم يرض العثمانيون عن النشاط الصفوي الشيعي وخاصة وأنه يعطي للصفويين وفق معتقداتهم الحق في حكم العالم الإسلامي باسم "آل البيت" والولاء لهم والاستمرارية في دعوتهم كباقي الدويلات الشيعية التي ظهرت عبر التاريخ.

لقد كان متغير "سنة – شيعة" عاملا رئيسيا في توتر العلاقات بين القوتين العثمانية والفارسية وفي نشوء حواجز نفسية بين المجتمعين وانتشار حالة من الكراهية والخوف المتبادل في أوساط الدولتين والذي تعمق بفعل الدماء التي سالت بين الطرفين أثناء المواجهات والحروب التي قامت بينهما[24]، حيث يذكر المستشرق برنارد لويس أن العداء

المذهبي بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة لم يكن يقل عن العداء الذي كان بين العثمانيين والعالم الأوربي المسيحي[25].

فالأساس المذهبي كان منطلقا محددا لطبيعة العلاقات العثمانية الصفوية وقد تعزز هذا العامل بعامل آخر هو العامل العرقي القومي أو ما يمكن تسميته بالخلفية الديمغرافية للعلاقات القائمة بين البلدين.

حيث تشكلت الديمغرافيا العثمانية خلال مطلع القرن السادس عشر من عدة قوميات وشعوب كانت مركزها الأسرة العثمانية التركية ومن التف حولها من القبائل التركمانية والغزاة الأتراك ثم بدأت تتزايد تلك المكونات بفعل الفتوحات والتوسعات المتلاحقة لتشمل البلغار والصرب والسلاف والكرج والبوشناق والأرناؤوط والأكراد والأرمن والعرب واليونانيين واليهود...إلخ، فكانت الدولة العثمانية بذلك كيانا متعدد الأعراق والقوميات[26]، يجمع بينهم تشكيل سياسي واحد، ويشير المؤرخون هنا إلى جو التسامح الديني الذي ساد داخل الأراضي العثمانية حيث تمتع المسيحيون بمختلف طوائفهم "الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت" بالحرية والأمان كما أن اليهود أيضا قد حفظت مصالحهم ومعتقداتهم حيث عاشوا في مختلف الحواضر العثمانية كإسطنبول وبغداد والجزائر وبورصة والموصل... في سلام وأمان بل وشكلوا فئة فاعلة وخاصة في الجانبين الاقتصادي والإداري[27].

وإذا قارنَّا الديمغرافيا العثمانية بالديمغرافيا الصفوية سنجد أن هذه الاخيرة تتشكل من عدد أقل من القوميات فالصفويون كأسرة يحسبون في تكوينهم الحضاري على التركمان

بغض النظر عن أصلهم الحقيقي الذي تتضارب حوله الروايات، حيث تعد القبائل التركمانية والمريدين التركمان النواة الصلبة لسكان الهضبة الإيرانية التي قامت عليها العصبية الصفوية ويضاف إليها المجموعات الفارسية والأوزبكية والأفغانية والبلوشية والكردية وبعض الولاءات العربية التي انضمت إلى الدولة في خضم توسعاتها ونشرها للتشيع[28]، ويشار هنا إلى أن معظم هذه التشكيلات القومية كانت تدين بالإسلام السني والشيعي إلى غاية ازدياد نسبة الشيعة بفعل إعلان التشيع مذهبا رسميا للدولة وفرضه عنوة على رعاياها[29].

وبذلك يكون التداخل الإثني بين الدولتين من حيث تشكيلاتهما القومية والعرقية الآسيوية عاملا مهما في تحديد طبيعة العلاقات بين القوتين العثمانية والصفوية سلبا وإيجابا[30] .

فالمنطلقات والأسس الدينية المذهبية التي تأسست عليها وسارت بها الدولتان العثمانية والصفوية قد كانت المحرك الرئيسي للتداخل بين القوتين فكان الصراع أمرا منطقيا فرضته مجريات الأحداث وطبيعة الأمور، فالعثمانيون لم يكونوا ليقبلوا بظهور قوة إسلامية جديدة تنافسهم في الزعامة وتختلف عنهم في التكوين المذهبي كما أن طموحات الصفويين واندفاعهم الطائفي ورغباتهم التوسعية قد عجل لهم بالصدام العسكري مع الجيوش العثمانية، فكانت هضبة الأناضول والهضبة الإيرانية ومناطق الأطراف الغير عربية وبلاد المشرق العربي مسرحا لصدام عثماني صفوي دام أكثر من قرنين من الزمان

1736/1514 ، وقد ألقى ذلك الصراع بظلاله على العلاقات بين تركيا وإيران إلى يومنا هذا .

الهوامش:

[1] يُعَدُّ الدينُ رافدا رئيسيا في التكوين الحضاري بغض النظر عن صحة تعاليمه من خطئها.

[2] مالك بن نبي مفكر وفيلسوف جزائري 1973/1905 له عشرات المؤلفات في الفكر والفلسفة وفلسفة التاريخ، أرنولد جوزيف توينبي مفكر انجليزي 1889/ 1975 أهم أعماله " دراسة للتاريخ" وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين (للتوسع أكثر أنظر: مولود عويمر، **مالك بن نبي حياته وآثاره**، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2011)

[3] مثل كارل ماركس وفريديك إنجلز وهيجل وجون بول سارتر.

[4] السلطان عثمان بن أرطُغرل بن سليمان شاه (/1258م – 1326م) الملقب بعثمان الأول هو مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها، وإليه تنسب الدولة التي استمرت إلى سنة 1923 ودام حكمه من عام 1299 إلى 1324 بعد وفاة أبيه أرطغرل بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي (أنظر: سعيد أوزتورك وأحمد أق كوندز، **الدولة العثمانية المجهولة**، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008، ص58.)

[5] صفي الدين اسحاق ابن الشيخ أمين الدين جبريل ابن السيد صالح ابن السيد قطب الدين أحمد، يعد الجد المؤسس للسلالة الصفوية التي حكمت إيران بين سنتي 1736/1501.

[6] برنارد لويس (من مواليد 1916بلندن) أستاذ في الجامعات البريطانية والأمريكية لدراسات الشرق الأوسط متخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب ويشتهر خصوصا بأعماله حول تاريخ الامبراطورية العثمانية ترجمت أغلب مؤلفاته إلى 20 لغة منها العربية، الفارسية، التركية والإندونيسية (أنظر: برنارد لويس، **إستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية**، ترجمة: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1982، ص7)

[7] برنارد لويس، المرجع السابق، ص177.

[8] محمود محمد الحويري، **تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ط1، 2001، ص37.

[9] إسماعيل أحمد ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان، الرياض ط1، 1996ص12.

[10] محمود شاكر، **التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 4، 2000، ص27.

[11] عمار بن خروف، **دروس ومحاضرات مقياس المسألة الشرقية وتفكك العالم العربي**، أُلقيت على طلبة السنة الأولى ماجستير، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، 2012/ 2013.

[12] مصطفى كامل، **المسألة الشرقية**، مطبعة الآداب، مصر، ط1، 1998، ص05.

[13] هو شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه **"النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة"**، وقد نشره مصطفى حلمي بعنوان **"الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية"**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص11.

[14] إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص232.

[15] محمد عبد اللطيف هريدي، **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الاسلامي على أوربا**، دار الصحوة للنشر والتوزيع ،1987ص44.

[16] تعاني الأمة الإسلامية من تأثير الاختلاف المذهبي والطائفي على الاستقرار السياسي والانسجام الاجتماعي حيث نشبت عدة حروب أهلية وتسود اضطرابات سياسية بهذه الخلفية في زمننا الحالي في دول عربية مثل (العراق، سوريا، لبنان...)

[17] رغم الاختلاف المذهبي بين أبناء الديانة النصرانية من الأوروبيين (فرنسا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال الكاثوليك – ألمانيا وبريطانيا البروتستانت – ودول أوروبا الشرقية الأرثوذوكس) إلا أننا نشهد اليوم نجاح تجربة الاتحاد الأوروبي سياسيا واقتصاديا والتي تجاوزت الصراعات الدينية والمذهبية.

[18] نقل العثمانيون بعد دخولهم القاهرة الخليفة العباسي الذي كان بالبلاط المملوكي إلى إسطنبول وهنا تتناقل المصادر العثمانية قصة تنازله عن الخلافة للسلطان سليم الأول (1520/1512) والذي يُعد

أولَ سلطان عثماني يُلقب باسم الخليفة (أنظر: محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981، ص 194).

[19] محمود ثابت الشاذلي، **المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299–1923)**، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989، ص55.

[20] محمد سهيل طقوش، **تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1736/1501**، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009، ص54.

[21] عبد العزيز الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، مكتبة الإنجلومصرية، القاهرة، 1980، ص19.

[22] عباس إسماعيل صباغ، **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999، ص30.

[23] بقيت هذه القضية التاريخية شائكة ومحط خلاف بين من نفاها من أساسها وبين من أثبتها وأعطى الشرعية للعثمانيين بها، وبين من أصَّل شرعيًّا على أن الخلافة الإسلامية الحقيقية لا تنتقل بتلك الطريقة التي تمَّت بها للسلطان العثماني سليم الأول.

[24] تتناقل المصادر التاريخية أخبارا عن مذابح قام بها الصفويون في حق أهل السنة من سكان الهضبة الإيرانية وتخومها ومذابح قام به العثمانيون في حق الشيعة الصفويين (أنظر: محمد عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق، ص48 وانظر أيضا: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص189)

[25] برنارد لويس، المرجع السابق، ص53.

[26] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص112.

[27] نفسه، ص111.

[28] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص115.

[29] تذكر المصادر العثمانية إجبار الصفويين لأهل السنة من رعايا الدولة إلى التحول للمذهب الشيعي بالقوة وبحد السيف وأنهم قاموا بتصفية كل من رفض ذلك، عكس العثمانيين الذين عرفوا بتسامحهم الديني حتى مع غير المسلمين.

[30] نفسه، ص117.